التاريخ والعولمة

د.أبو القاسم سعد الله *

العولمة ليست ظاهرة جديدة علينا نحن العرب المسلمين، فكل حضارة وكل دين أو سلطة تعمل جاهدة على فرض نفسها على الآخرين بشتى الوسائل، لأنها تريد الانتشار في نفسها وأن تنشر في الآخرين إلى أن يخضعوا لها، وأن يعيشوا مثلها. كما أنّ فرض النفس على الآخر يعني حماية الذات لأنها لو لم تتسلّط لكانت هدفا للهجوم والتدمير، وربما الزوال تماما من الوجود. وهكذا يكون صراع العولمة هو صراع من أجل البقاء للأصلح، أي من باب التحدي للآخر الذي عليه أن ينتصر أو يفنى. وهل نحن في حاجة إلى استعراض موكب الحضارات والأديان والدول السابقة ؟ ليتذكّر كلّ منا ما حدث لدولتي الفرس والروم، ولشعوب الإغريق والعرب، والأنجلو-ساكسون واللاتين، وللديانتين المسيحية والإسلام، وللفلسفتين الماركسية والرأسمالية. ولنتذكّر نحن العرب المسلمين حادثتين في حياتنا في العصر الحديث وما ترتب عليهما من آثار

*. أستاذ بجامعة الجزائر.

سلبية وإيجابية علينا، الأولى هي الحملة الفرنسية على مصر والثانية هي الحملة الفرنسية على الجزائر. فقد ترتب على الحملة الأولى تغيير جذري في المشرق العربي، وترتب على الحملة الثانية تغيير جذري في المغرب العربي. لقد استمرّت العولمة في الانتشار غير المباشر في مصر والشام في عهد محمد علي وأحفاده إلى احتلال مصر من قبل الإنجليز سنة 1882، وما رافقها من تأثير على تاريخ الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في مختلف الميادين، بما في ذلك إعادة النظر في تفسير الأحداث كخلافة أبي بكر وفتنة علي ومعاوية وأسباب ظهور الفرق السياسية كالقدرية، وإعادة النظر أيضا في برنامج الجامع الأزهر وفتح باب الاجتهاد وإطلاق دعوة تحرير المرأة وتدوين الفقه الإسلامي ووضع الدساتير الوضعية وتحديث التعليم، وحرية الصحافة والتعبير. ويدخل ضمن موجة التغيير هذه إعادة النظر في تحقيب التاريخ، وإعادة تسمية الدويلات بأسماء الأعراق التي أسستها، والاهتمام المتزايد بمسألة الرِقّ في الإسلام، وظاهرة الموالي والثورات الشعوبية ونزع صفة الأصالة عن حضارة العرب والإسلام.

ومن الملاحظ أن التأثيرات التي حدثت في مصر قد امتدت إلى أجزاء من المشرق شملت بالتدرّج بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية، بل امتدت أيضا إلى أقطار المغرب العربي في وقت لاحق، مثل الحركة السلفية، والفكر القومي، ودعوة الإخوان المسلمين، وكذلك ما سمّي بالنهضة الأدبية والفنية.

أما الحملة الفرنسية على الجزائر أو الحدث الثاني في نطاق العولمة الساعية إلى الهيمنة والانتشار، فقد ترتب عليه ابتلاع الجزائر بعد الدخول معها في مواجهة شرسة غير متكافئة شملت مختلف القطاعات والفئات، كما شملت مظاهر الحضارة، ومنها التاريخ. (وسنعود إلى هذه النقطة)

كما امتدت ظلال الاحتلال من الجزائر إلى تونس والمغرب وإلى حدّ ما إلى ليبيا. فأخذت حكومات هذه البلدان تحاول إصلاح نفسها لمواجهة التحدي، بل كانت تصدر إليها الأوامر بضرورة الأخذ "بالإصلاح" (كما هو واقع الحال اليوم)، كما حدث لبايات تونس الذين أخذوا يزورون القادة الفرنسيين في فرنسا نفسها أو في الجزائر ليأخذوا منهم التعليمات والتوجيهات، حتى عرفت تونس أوّل وثيقة دستورية مكتوبة في العالم العربي الإسلامي، وهي الوثيقة المعروفة بعهد الأمان، والتي صدرت قبل الدستور العثماني بنحو عشرين سنة. وقد تغيّر الحكم في طرابلس إذ انتزعه السلطان من أيدي القرمانليين وألحقه بالباب العالي. أما سلاطين المغرب فقد أخذوا يصلحون جيشهم وإدارتهم ويخضعون القبائل لحكمهم خوفا من تفتيت السلطنة أمام منح الجنسية الأجنبية للمواطنين لحمايتهم من حكومتهم. وقد بلغ "الإصلاح" المطلوب درجة متقدّمة على يد السلطان الحسن الأول، ومع ذلك لم ينجُ المغرب من الوقوع فريسة للاحتلال الفرنسي سنة 1912.

استعرضنا هذه الصورة لنصل إلى القول : إن تاريخ هذه الأقطار العربية الإسلامية، مشرقا ومغربا، قد تأثر بفعل عولمة الاستعمار. كيف ذلك ؟ إن كل أنواع الاستعمار تركت بصماتها على الشعوب التي استعمرتها، والدليل على ذلك ما نشاهده ونعيشه اليوم مع ما يسمى بـــ (النخب) التي نشأت وتخرّجت من المدارس التي أشرف عليها المستعمرون. فرغم شحّ الثقافة الهولندية فقد تركت أثرها على النخبة الإندونيسية التي تولّت حكم إندونيسيا بعد 1945. ورغم اهتمام الإنجليز بالمصالح الاقتصادية والعسكرية فإنهم تركوا تأثيرهم على الهند ومصر ودول الخليج وإفريقيا، وهي الأقطار التي استعمروها في أزمنة مختلفة. أما الاستعمار الفرنسي فمعروف عنه أنه

من النوع الذي يفرض تأثيره (ولا سيما الثقافي) على البلدان التي وقعت تحت نيره. ويمكننا أن نقيس على ذلك الاستعمار البرتغالي والإسباني والإيطالي والألماني والروسي، فهي جميعا قد أثرت على مستعمراتها بمختلف الوسائل والدرجات. ولكي يغرس أيّ استعمار ثقافته (عولمته) يلجأ بداية إلى الطعن في القيم الثقافية السائدة في البلد الضحية أو ما يسمى بالثقافة الأهلية التي تتصدى له، كما يعمد إلى تمجيد ثقافته ولغته وإنجازاته الحضارية. وقد جنّد المستعمرون طلائع مهّدت لهم الطريق كالمستشرقين والمبشرين، كما استعملوا بعض النخب الأهلية التي كوّنوها على أيديهم. ثم التحق بهؤلاء باحثون وأكاديميون كانوا يشكّلون إطارات فاعلة في الجامعات والمعاهد المتخصّصة.

لقد تضافرت جهود هؤلاء جميعا لخدمة ثقافة العولمة والإساءة إلى حضارة الشعوب المغلوبة على أمرها، مركزين طعناتهم على الهوية والتاريخ الإسلامي بالخصوص.

تولّى المستشرقون دراسة الإسلام واللغة العربية دراسة استكشافية. لقد كان يحدوهم في البداية حبّ المعرفة والاطلاع والتنافس على التفوّق في ميدان العلم بالشرق وأهله وفكره وعبقريته. فدرسوا الأدب الجاهلي وقبائل العرب العاربة والمستعربة وأنماط الحياة العربية قبل الإسلام، وسبروا أسرار اللغة العربية وقواعدها ولهجاتها.

ثم بحثوا في حياة الرسول ﷺ وأحوال عصره ومكونات شخصيته، كما درسوا القرآن الكريم الذي جاء به، ومضمون الرسالة المحمدية وأهدافها الإنسانية، واستخدموا لذلك منهج البحث الحديث بما فيه من أدوات وتقنيات ومصطلحات ومنطق متحرّر من تقديس الأشياء ومن الغيرة

والحماس الذاتي. كما درسوا عصور التاريخ الإسلامي (الراشدي، والأموي، والعباسي...)، واستشفّوا الملامح الحضارية كالترجمة وظهور الفرق والمذاهب، والتثاقف بين العرب والشعوب المجاورة، ولاحظوا تطوّر علوم القرآن الكريم وعلوم الحديث الشريف، وازدهار التأليف في شتى العلوم والنظريات الفلسفية والمدارس الكلامية والأدبية، كما تتبّعوا ميلاد ظاهرة التصوّف وأعراض التخلّف في الدولة والمجتمع الإسلامي...

وبعد أن تشبّعوا من دراسة هذه الظواهر والأعراض برزت منهم طائفة أخذت توظّف معارفها لخدمة الاستعمار بتفسير التاريخ الإسلامي تفسيرا يُسيء إلى مفهوم التطور، وجعلت من التخلّف الذي أصاب المسلمين حجّة عليهم، وطعنت في حكّامهم على أنهم مستبدون وأن الاستبداد من طبعهم وأنه من أثر الإسلام عليهم لأن الإسلام لا يعترف بحكم الشعب، كما طعنوا في المحكومين باعتبارهم رعايا قدريين، فيهم قابلية الاستبداد والاستعداد الفطري للاستعباد. ومن هؤلاء المستشرقين من بالغ ونفى كل فضيلة عن المسلمين والعرب في التاريخ وكل مساهمة إيجابية في الحضارة الإنسانية. وإذا كانت هناك أيّة فضيلة تُذكر لهذه الحضارة فهي منسوبة إلى شعوب أخرى غير عربية، اعتنقت الإسلام، ولاسيما تلك الشعوب التي ترجع إلى أصول آرية.

أما المبشرون فقد درسوا التاريخ الإسلامي أيضا وجعلوا منه مادة للطعن في الرسول ﷺ وسيرته الشخصية ورسالته. كما وجّهوا نقدهم (أو بالأحرى شتمهم) للقرآن وأحكامه عن المرأة والرقّ والقصاص والجهاد. وادّعوا أن الإسلام انتشر بالسيف لا باللسان، وبالعنف لا بالدعوة والإقناع. ونشروا أفكارهم هذه في أوساط العامة والأغرار من الشباب

والأطفال. واستخدموا لذلك شتى وسائل الإغراء والتأثير، مستغلين جهل مخاطبيهم وفقرهم وبساطة تفكيرهم.

وكانوا في حملتهم هذه يجدون الحماية والدّعم من السلطة الاستعمارية الحاكمة، فهي لا تسهّل لهم فقط السفر وإقامة المشاريع بل كانت تمدّهم بالمال وتغضّ الطرف عن وسائلهم غير القانونية وغير الأخلاقية أيضا، وتحميهم حتى لا يتعرّضوا للاعتداء أو الإهانة.

وقد أدى نشاط هؤلاء المبشرين وأولئك المستشرقين إلى ظهور نُخبة أهلية تخرّجت من المدارس الاستعمارية جاهلة بتاريخ بلادها وقومها. وبذلك أصبحت هذه النخبة أداة لترويج أفكار الاستعمار نفسه، ولدعم أنشطة المستشرقين والمبشرين بما تقدّمه لهم من خدمات كالترجمة والكشف لهم عن العادات والتقاليد التي لا يصلون إليها بأنفسهم، وتوفير المخطوطات والمعلومات لهم، ونحو ذلك مما رسّخ أقدام الاستعمار من جهة، وأفسح المجال أمام طلائعه الفكرية لكي تدخل في صميم المجتمعات الإسلامية. وقد تبرّعت النخبة بالتشكيك في بعض الأحكام القرآنية وأعلنت عن "تحرّرها" وعدم تزمّتها مثل بقية المسلمين، أي أنها غير ملتزمة بنصوص الأحكام الإسلامية ولا تنظر بتقديس إلى ما اتفق على تقديسه المؤرّخون والمفسّرون المسلمون. بل إن من هذه النخبة من تخلّى عن دينه وأصبح داعية للاندماج والذوبان متضايقا من لغته وقومه ووطنه.

أما الأكاديميون فقد وظّفوا مناهج البحث، ومنها المنهج العقلي ومذهب الشك، وسلّطوا ذلك على أحداث التاريخ الإسلامي ولا سيما مسألة الخلافة، والصراع على السلطة، وثورات الأقليات، وظهور الدعوات والمذاهب، والتوتر الاجتماعي، والتمايز الطبقي، وقضية البداوة والحضارة، وأطوار التاريخ، ودور القبائل والعشائر والنزاعات العرقية.

وفي مقابل هذا التشكيك والتسويد لصفحات التاريخ الإسلامي كان الأكاديميون، كزملائهم، يقومون بتبييض صفحات تاريخ الدولة المستعمرة، وتعظيم أمجادها والإشادة بإنجازاتها رغم أن الذين يفعلون ذلك كانوا يعملون في رحاب الجامعات والمعاهد العلمية ويحدّثون طلابهم عن ضرورة التزام الموضوعية والحياد في معالجة المسائل التاريخية والبحث عن الحقيقة.

قد يقول قائل هذا كلّه حدث في الماضي، ونحن نريد أن نعرف ما سيحدث وما يخطّطه لنا الغد، كما نريد أن نعرف عن موقف العولمة (الجديدة) من التاريخ العربي الإسلامي، أما ما تحدّثتم عنه فيرجع إلى العولمة (القديمة)، عولمة عصر الاستعمار الذي انطوى بساطه وانتهى أمره، بعد افتضاح سرّه. ولكننا بدورنا نسأل هل من الصواب أن نميّز بين عولمة وأخرى ؟ وهل تختلف عولمة عصرنا عن عولمة العصور الغابرة ؟

وهل حقا هناك فرق بين عولمة قديمة وعولمة جديدة ؟ في الجواب على ذلك نحن أمام رأيين : إما أن نقول إن العولمة واحدة وإنها ظاهرة مستمرّة واضحة كل الوضوح للشعوب التي عانت منها وقاومتها. وإما أن نقول إن الذي تغيّر هو الممثل فقط. فبدل دور فرنسا وبريطانيا... جاء دور أمريكا. وبدل إدارة معروفة ومباشرة لشؤون المستعمرات أصبحت هناك دوائر عالمية غامضة تُصدر التعليمات والأوامر لتطبيق العولمة بالطريقة التي تريدها واشنطن. وإذا كانت هذه التعليمات صريحة ومباشرة بخصوص ما يسمّى بالإصلاحات التعليمية والسياسية وحقوق الإنسان وحقوق المرأة، فإنها ما تزال غامضة بخصوص التاريخ والتراث والأخلاق. ولكن هناك مؤشّرات تدلّ على ما قد يحصل في نطاق التاريخ العربي الإسلامي

بالذات، بناءً على تجربة المستعمرات السابقة وإصدار الأوامر من السادة إلى العبيد وعقدة التفوّق العلمي والتكنولوجي المعروفة من الماضي.

وبالإضافة إلى ذلك تكشف الأيام أنّ هناك ربما حربا صليبية، بعض دوافعها مُعلن والبعض ما يزال خفيا. وكما كانت وراء الحروب الصليبية القديمة دوافع معلنة وأخرى خفية فكذلك الحروب الصليبية التي تجري أمام أعيننا باسم العولمة الجديدة. فقد رفع الصليبيون القدماء شعارات كحماية الدين وحق الحج لشنّ حرب مقدّسة على مركز من مراكز الثقل في العالم الإسلامي وهو البقاع المقدسة، ولكن أهدافهم الخفية كانت اقتصادية وسياسية كالتخلّص من الضغط السكاني والسيطرة على الطرق التجارية وسلب الثروات، والحصول على الشعبية بين الرعايا، وتجنب الحروب المحلية.

ونحن نشهد اليوم شيئا من كل ذلك، تحت شعارات يزعم أصحابها في الظاهر على الأقل أنها في صالحنا كتحقيق الديمقراطية وحقوق الإنسان وحرية التعبير. أما الجانب الخفي والحقيقي من هذه الحروب فالأيّام تكشف عنه بالتدريج.

ومن المتوقّع أن يشنّ المستشرقون والأصوليون الجدد، أمريكيون ومن والاهم، حملة من النقد على تاريخ الإسلام تحت ذريعة تجريده من الخرافة والتحيّز وإخضاعه للمنهج العقلي والتفكير المنطقي، وتخليصه من الروح العربية، ومن فكرتي (الخلافة في قريش) وتقديس النصوص الشرعية، والدعوة إلى تأويل هذه النصوص بما يتلاءم ومصلحة الإنسان والعصر، مع التركيز على دور الأقليات والطوائف العرقية والمذهبية التي طالما عانت من اضطهاد الأغلبية في دعواهم، وكذلك التخلّص من سيطرة آراء أهل السنة

والجماعة القائمة على تكريم الصحابة والتحفّظ من لومهم على اجتهادهم السياسي. وقد نشهد من وقت لآخر هجمات من رجال الكنائس على الإسلام من كونه دين إرهاب واستبداد وتخلّف وتعصب، وهجمات أخرى على القرآن من كونه يدعو إلى القتال والجهاد والقدرية. كما نتوقّع أن يعمل الخبراء في ميدان الاقتصاد والعسكرية، كلٌّ في مجاله، على دعم العولمة لتقويض أركان التاريخ العربي الإسلامي.

ولذلك لا نستغرب أن تنطلق الحملة على هذا التاريخ من برنامج التعليم. فالطفل يجب أن يُحرّر من سلطة الآباء وسيطرة الأسرة وأن يُسلّم للمدارس الخاصة لتُخضعه لبرنامج علماني متحرّر من القيم الدينية والأخلاقية والاجتماعية الموروثة، برنامج يركّز على تكوين شخصية الفرد الطبيعية بعيدا عن الموروث التقليدي، على أن تكون أداة التعليم في هذه المدارس هي إحدى اللغات الأوروبية إمعانا في تبعيد الطفل عن محيطه الأصلي، لأن لغة القرآن ليست فقط عاجزةً في نظر خبراء العولمة عن استيعاب متطلّبات العصر بل هي كأهلها، تحمل في موروثها الثقافي ومرجعيتها التاريخية روح التخلّف، وهي قبل كل شيء لغة القرآن والإسلام المحكوم عليهما بالشطب من برنامج المدرسة الخاصة الجديدة وحتى المدرسة الحكومية "المتحرّرة". وعلى البرنامج التربوي حينئذ أن يستجيب شكلا ومضمونا لحاجة العصر التي هي حاجة الإنسان البراغماتي، فيستعمل الرموز والمصطلحات العالمية في المواد العلمية، ويوظف الأفكار والقيم المشتركة في المواد الإنسانية والاجتماعية، ليُصبح العالم كله فعلا بلدية واحدة لها رئيس واحد يصرّف شؤونها بواسطة الأقمار الصناعية وشبكة المعلومات. وبذلك يُختصر تاريخ العالم كله في

تاريخ بلدية واحدة، فلا تعددية في الأمم والدول، ولا تعددية في القوميات والوطنيات، ولا تعددية في الأعراق، بل هو عالم واحد يصدق عليه قول المتنبي في ممدوحه :

فتى ما سرينا في ظهور جدودنا إلى عصره إلا نرجي التلاقيا

وفي الختام دَعُونا نلخّص ما سيواجهه العالم الإسلامي من مطالب وضغوط باسم العولمة. من ذلك فيما نتوقع :

1. وضع برنامج يقوم على التقليل من أهمية الفتوحات الإسلامية والحضارة الإسلامية مع إبراز دور الحضارات السابقة والمعاصرة للإسلام كالفارسية والهندية والمصرية.

2. تفسير الفتح الإسلامي على أنه احتلال واستعمار بالسيف والجهاد، وإعطاء الحق للشعوب التي قاومت الفتح على أنها كانت تدافع عن النفس وأن من قاوموا الإسلام كانوا رموزا وأبطالا.

3. وصف العرب بأنهم قوم غزوٍ جاؤوا من البدو وانطلقوا بدعوى الإسلام والجهاد، يبحثون عن الرزق والثروة والتوسع على حساب الشعوب الأخرى، وكان انسياحهم في الأرض يرجع في الحقيقة إلى أسباب ديموغرافية وإلى فقر بيئتهم الصحراوية وضيق مجالهم الاقتصادي.

4. تفسير نهضة العالم الإسلامي من أجل التخلّص من الاستعمار ومقاومة النفوذ الغربي لم تكن بدافع الوطنية والقومية والمحافظة على الهوية، وإنما بدافع التعصّب ومعاداة التقدّم الذي جاءت به الحضارة الغربية.

5. إلغاء خصوصيات التاريخ عند كل أمة، وحصر التاريخ المحلي في مجال الفولكلور، والتخلي عن ظاهرة الفخر بالإنجازات والتغني بالأمجاد

والبطولات، والتركيز على المشاركة والتسامح وقبول الآخر ونبذ كل ما من شأنه إظهار التمايز والفروق.

إلى أي حدّ يمكن لهذا البرنامج أن يتحقق ؟ إن الجواب على ذلك يتوقف في نظرنا على عاملين :

1. الصمود أمام أوامر وتعليمات العولمة بتقوية أجهزة المناعة في الأمة بنشر الوعي في كيفية التعامل مع الأفكار الدخيلة وتذكير الأمة بما تمتلكه من رصيد حضاري يُضاهي وربما يتفوق على ما تقدّمه العولمة. أما التصدي للعولمة بتحصين الحدود في وجه رياحها العاتية فهو إجراء لا نوافق عليه لأنه غير عملي ولن يُجدي فتيلا.

2. تقوية عقيدة الأمة في ذاتها وفي قوّتها المعنوية ودعم إرادة الخلق والإبداع فيها، لأن العقيدة القوية في الذات هي التي تصنع التاريخ وهي التي تمنح القدرة على الإبداع والتكيّف، وهي في الأخير الملاذ الآمن لبقاء الأمة أمام تحديات العولمة التي نعتقد أن ريحها ستذهب كما ذهبت معظم ريح العولمات السابقة.